التوسع الفينيقي في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط

التعريف بالفينيقيين

يرى أصحاب المصادر الأدبية اليونانية و اللاتينية أن الفينيقيين ليسوا من أهل البلاد الأصليين، فيرى هيرودوت أنهم نزحوا من البحر الإريتري، و يرى سترابون أنهم من سكان الخليج الفارسي، كما يجعلهم جوستان (Justin) من الغرباء الذين استوطنوا فينيقيا قادمين من الشرق.

و على كل فإن الفينيقيين هم أحفاد الكنعانيين الذين ورد ذكرهم في كتاب العهد القديم (سفر التكوين، 10: 1-6). و قد أقام الكنعانيون الساميون حضارتهم في فلسطين و لبنان و قسم من سوريا. وبينما يعود تاريخ الكنعانيين الى النصف الأول من الألف الثانية قبل الميلاد، استقر رأي المؤرخين على اعتبار الربع الأخير من الألف الثانية هو البداية الفعلية لتاريخ الفينيقيين.

لقد تحكمت فينيقيا في شريط ساحلي ضيق هو في الحقيقة طريق تجاري هام ربط إفريقيا بآسيا و أوروبا، و هو ما جعل القوى العظمى في المنطقة تفكر في الاستيلاء عليه. فالساحل الفينيقي الذي يبلغ طوله نحو 440 كلم، يمتد ما بين خليج الإسكندرونة في الشمال و صحراء سيناء في الجنوب و يحده من الجهة الشرقية طولياً جبال لبنان، و هي تمتد من الشمال إلى الجنوب بمحاذاة الساحل و إلى الغرب من هذا الشريط الضيق يوجد البحر الأبيض المتوسط الذي التفت إليه الفينيقيون فجعلهم يتصلون بشعوبه. أما عن الأراضي الزراعية، فيمثلها سهل ساحلي ضيق محصور بين الجبال و البحر، و يتسع هذا السهل في الشمال و الجنوب و في أماكن متفرقة من الوسط بالقرب من طرابلس و صيدا و صور. بالإضافة إلى ذلك، فقد اجتذبت الثروات الطبيعية لفينيقيا، و أبرزها غابات الأرز، أنظار الشعوب المجاورة، فاستولى عليها المصريون، والحيثيون، والكلدانيون، والفرس.

مدن الدول الفينيقية

لم يعرف الفينيقيون الوحدة، و انقسم هذا الشعب الى عدة كيانات سياسية تمثلها مدن دول كانت تنتشر على طول الساحل الفينيقي. و قد اتبع الفينيقيون سياسة المدينة الدولة لعدة اعتبارات، أبرزها تكالب القوى الطامعة في السيطرة على المنطقة و طبيعة الأرض التي حالت دون تحقيق الوحدة المرجوة. و أبرز مدن الدول الفينيقية هي:

أ. أرواد

تقع مدينة أرواد الى الجنوب من مدينة رأس شمرا (أوغاريت)، و قد أنشأها الفينيقيون على جزيرة صغيرة مجاورة للشاطئ. و بينما يشير كتاب العهد القديم إلى أن سكان مدينة أرواد هم من جنس الكنعانيين. و تشير النصوص التي خلفها لنا المصريون إلى محالفة أرواد للحيثيين و قتال جيوشها الى جانبهم في معركة قادش في القرن الثالث عشر قبل الميلاد. كما دفع حكامها ضريبة التبعية للآشوريين. و في العهد الفارسي، توسعت رقعتها، و شارك أسطولها البحري في سنة 480 ق.م الى جانب الأسطول الفارسي في معركة سالاميس التي انتهت بهزيمة الأسطول الفارسي.

ب. جبيل

تقع مدينة جبيل (Byblos) شمال بيروت، و كان لها ميناء هام جعلها تقيم علاقات مع جزيرة كريت و مصر فرعونية منذ زمن مبكر يعود إلى النصف الأول من الألف الثانية قبل الميلاد. و كانت مدينة جبيل تابعة للمصريين في عهد الأسرة الفرعونية الثانية عشرة. كما تشير الكتابات المصرية إلى انحياز حكام جبيل إلى المصريين في صراعهم مع الحيثيين. و لكن سرعان ما زالت علاقة التبعية للمصريين بعد غزوة شعوب البحر.

ث. صيدا

يعود تأسيس مدينة صيدا الى بداية الألف الثانية قبل الميلاد، و نظرا لموقعها الجغرافي المميّز، فهي أقيمت على رأس داخل البحر، تزعمت بقية المدن الفينيقية في الفترة الممتدة ما بين القرن الرابع عشر ق.م و حتى القرن الثاني عشر ق.م. و قد اشتهر ملاحو صيدا بتجارتهم و ربطهم للعلاقات بالجوار الحضاري، فأصبحت لديهم مراكز تجارية في دلتا مصر، و سيطروا على جزيرة قبرص. و وصل تجار المدينة الى جزر بحر إيجة و سواحل بلاد اليونان القارية. و قد تأثر اليونانيون بتجار مدينة صيدا، فأخذوا عنهم الأبجدية و الاسترشاد بالنجوم في الملاحة البحرية، و استعمال المقاييس و الموازين. و على الرغم من وقوف حكام المدينة في وجه المدّ الآشوري، إلاّ أن الآشوريون لم يكونوا سببًا في تدمير هذه المدينة. فقد حدث أن قام ملك مدينة عسقلان، المنحدر من قبائل الفلسطينيين التي استقرت جنوب الساحل الفينيقي، بتدمير مدينة صيدا سنة 1195 ق.م. و قد لجأ سكان المدينة الى مدينة صور في الشمال، و ساهموا في ازدهار هذه الأخيرة.

ث. صور

يفهم من كلام هيرودوت الذي زار مدينة صور في سنة 450 ق.م بأن تشييدها يعود الى بداية الألف الثالثة قبل الميلاد. و قد عرفت المدينة أوج ازدهارها ما بين القرن الثاني عشر قبل الميلاد و القرن الخامس ق.م، فربطت العلاقات التجارية بين الحوض الشرقي و الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط. كما ساهم سكان مدينة صيدا الذين نزحوا إلى المدينة بعد تدمير مدينتهم في هذا الرقي الحضاري. و قد تميّز ملاحو صور بالحنكة التجارية و معرفة المسالك البحرية التي كتموها على غيرهم، فاستطاعت صور بهذه الطريقة أن تتحكم في التجارة الدولية خلال النصف الأول من الألف الأولى قبل الميلاد.

دفع حكام مدينة صور الضريبة السنوية للآشوريين، ثم امتنعوا عنها. و تحالفوا مع الفرس، واشتركوا بأسطولهم البحري إلى جانب الأسطول الفارسي في معركة سالاميس. و قبلها كانت لهم علاقات مميّزة جمعت ملكهم حيرام بالملك سليمان، فساهم الأول في بناء معبد أورشليم، و زود العبرانيين بأخشاب الأرز و بالمهندسين و عمال البناء. و بعد أن استعصت مدينة صور على أغلب الإمبراطوريات في الشرق الأدنى القديم، سقطت بأيدي جيوش الإسكندر المقدوني في النصف الثاني من القرن الرابع قبل الميلاد.

أسباب التوسع الفينيقي في الحوض الغربي للمتوسط

بدأ الفينيقيون في التوسع غربي البحر الأبيض المتوسط مع الربع الأخير من الألف الثانية قبل الميلاد، و قد تحكّمت عوامل عديدة في توسع هؤلاء الملاحين نوجزها فيما يلي:

1. العوامل السياسية

تتمثّل في ذلك الصراع العسكري الذي خاضته الدولة المصرية و الإمبراطورية الحيثية و الدولة الآشورية بغرض الاستيلاء على فينيقيا.

لقد اقتصرت العلاقات المصرية بالساحل الفينيقي في بدايتها عل التبادل التجاري حيث استورد المصريون من فينيقيا أخشاب الأرز لإنجاز مخططاتهم العمرانية و أبنيتهم الدينية و الجنائزية، لكن سرعان ما تحولت هذه العلاقة بعد طرد المصريين للهكسوس من علاقة تجارية الى مشروع عسكري توسعي رافقه نفوذ سياسي، اذ صارت فينيقيا مركزًا أماميًا للجيوش المصرية التي كانت تصد هجمات الأجانب الذين كانوا يمرون عبر الساحل الفينيقي لدخول مصر.

استغل الحيثيون فرصة انشغال المصريين بالاضطرابات التي صاحبت فترة حكم أخناتون، فقاموا ببسط سيطرتهم على شمال الساحل الفينيقي، و قام الملك الحيثي شوبيلوليوما بالتوسع على حساب الممالك الكنعانية خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر قبل الميلاد. كما قام الحيثيون بتأليب الفينيقيين ضد المصريين، و التحمت الجيوش الحيثية بالجيوش المصرية في معركة قادش، ليعقد المتحاربين معاهدة صلح سنة 1280 ق.م اقتسموا بموجبها الساحل الفينيقي إلى منطقتي نفوذ، الشمال للحيثيين و الجنوب للمصريين. و ظل الحال كذلك الى غاية غزوة شعوب البحر التي قضت على الدولة الحيثية في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، و قد ساهم الفراغ السياسي الذي خلّفه سقوط الدولة الحيثية ازدهار مدن صور و صيدا و جبيل.

التوسع الفينيقي في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط

يمثل الساحل الكنعاني (الفينيقي) شريطا ضيقا من الأرض ، يحده البحر الأبيض المتوسط من الجهة الغربية و من الشرق جبال لبنان ، أما عن الشمال و الجنوب فتمثلانه قوتين سياسيتين هما : الدولة الحيثية في الشمال و مصر الفرعونية في الجنوب . فقد احتدم الصراع بين الدولة الحيثية و مصر الفرعونية في منتصف الألفية الثانية قبل الميلاد في محاولة منهما للسيطرة على الساحل الفينيقي الذي كان يتحكم في الطريق البري الوحيد الرابط بين القارات الثلاث : أوروبا ، آسيا و إفريقيا . كما أن المنطقة عرفت أقدم مدينة في العالم (مدينة أريحا) في فلسطين ، التي يعود تاريخ تأسيسها إلى الألفية التاسعة قبل الميلاد ، و قد قامت هذه المدينة على أساس تجاري ، بحيث كانت تتحكم في ذات الطريق التجاري الذي ما فتأت القوى العظمى تتصارع بشأنه في منتصف الألفية الثانية قبل الميلاد . و عبر هذا الطريق كانت تعبر معظم خيرات بلاد الكنعانيين من خشب الأرز ، الزيتون ، الخمور ، الأقمشة ، البخور... إلخ .

و لقد نتج عن صراع الحيثيين و المصريين تقسيم الشريط الساحلي الفينيقي إلى منطقتي نفوذ ، ففرض المصريون نفوذهم على جنوب هذا الشريط بينما بسط الحيثيون نفوذهم على الجزء الشمالي منه . و قد تواصل هذا النفوذ الجيو سياسية في منطقة الشرق الأدنى القديم إلى غاية غزوة شعوب البحر ، التي ترتب عنها فراغ سياسي نتج عنه استقلال دول المدن الفينيقية ، خاصة بعد الركود الذي شهدته البحرية الإيجية على إثر هذه الغزوة .

يبدو أن لغزوة شعوب البحر إيجابياتها و سلبياتها على دول المدن الفينيقية ، بحيث أن هذه الأخيرة و بالرغم من استعادة نفوذها السياسي على أراضيها ، إلاّ أنها دفعت الثمن غاليا مقابل ذلك . فدمّرت هذه الغزوة عدّة مدن دول من بينها : أوغاريت و صيدا التي هدمها ملك عسقلان

الفلسطيني سنة 1195 ق.م ، و قد نتج عن هذا الأمر نزوح سكان هذه المدن إلى بقية مدن دول الساحل الفينيقي التي اكتظت شيئا فشيئا .

للأسباب المذكورة آنفا و لغيرها ، انطلق الملاحون الفينيقيون يبحثون عن أراضي جديدة في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط تمكنهم من استيعاب فائض السكان ، و تأسيس كيانات سياسية تكون امتدادا لتلك المتواجدة بالشريط الساحلي الفينيقي . كما يعتبر البحث عن الأسواق التجارية من بين الأسباب الهامة التي جعلت الفينيقيين يفكرون في التوسع بالحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط .

أول ما قام به الملاحون الفينيقيون على إثر انطلاقهم في البحث عن الأسواق التجارية بالحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط هو تأسيس المحطات التجارية الباكرة مثل قادس و ليكسوس اللتان أسستا في حوالي تاريخ 1110 ق.م ، و أوتيكا التي أسست سنة 1101 ق.م ، لتكون هذه المحطات نقاط اتصال بين سكان المناطق المحليين و هؤلاء التجار المغامرون .

تأسيس قرطاجة

يكاد يتفق المؤرخون على اعتبار تاريخ 814 ق.م هو التاريخ الرسمي لتأسيس مدينة قرطاجة على يد المهاجرين الفينيقيين، على اعتبار أن المدينة تأسست قبل انطلاق الألعاب الأولمبية الأولى التي كانت في 776 ق.م بحوالي 38 سنة، و تأخر تأسيسها عن بناء مدينة أوتيكا بـ 287 سنة . و تذكر الأسطورة التي جاءت على لسان المؤرخ اليهودي يوسيفوس التي استند فيها إلى حوليات مدينة صور ، أنه بعد وفاة الملك ماتان بقي الحكم لابنيه عليسا و بغماليون . و كانت عليسا على غاية كبيرة من الجمال ، فتزوج منها خالها عاشر باص كبير كهنة معبد ملقرط الذي كان غنيا جدا ، و قد خشي عاشر باص على ثروته فقام بدفنها تحت جدران المعبد . و عندما بلغ خبر الكنز المدفون بغماليون، اعتقد بأن الحيطة إنما اتخذت من أجله ، فقتل زوج أخته قصد الحصول على ثروته . غير أن عليسا احتالت على أخيها و تظاهرت بعدم الاكتراث للحادثة التي آلمتها ، و عندما أمنت شر أخيها حملت أموال زوجها و أبحرت رفقة مؤيديها إلى قبرص حيث انظم إليها كاهن معبد جونو ، هذا الأخير الذي ضمن لنفسه و لأسرته من بعده حق الإشراف الديني في

المستوطنة الجديدة التي كانت عليسا تخطط لإنشائها على أرض الليبيين . كما حملت عليسا معها من قبرص ثمانين فتاة ليكنّ أزواجا للشباب المرافق لها . على إثرها توجهت هذه الأميرة إلى بلاد الليبيين ، فنزلت بالقرب من مدينة أوتيكا ، فقامت بشراء قطعة أرض من السكان المحليين مقدار جلد ثور قطّعته إلى أشرطة دقيقة أحاطت بها مساحة تكفي لبناء مدينة جديدة عرفت بـ " قرط حدشت " .

نقد أسطورة تأسيس قرطاجة

يستشف من الأسطورة آنفة الذكر أن بناء قرطاجة إنما كان نتيجة صراع سياسي داخل البيت الملكي في مدينة صور ، نتج عنه انسحاب الحزب المنهزم إلى ليبيا قصد بدء حياة جديدة .

يبدو أن قصة الكنز المدفون التي وردت على لسان يوسف اليهودي إنما هي من نسج الخيال، بحيث أنه من المتعارف عليه أن اليهود من بين الذين يمجدون الذهب و الفضة.

إن اتجاه عليسا إلى قبرص يدل على تبعية الجزيرة إلى فينيقيا صور . أما النساء اللاتي اخذتهن معها من ذات الجزيرة ليكنّ أزواجا للشباب المرافق لها، فهنّ من بغايا معبد جونو أو ما يعرف في الشرق الأدنى القديم باسم عشتار، و يشير هيرودوت في القرن الخامس قبل الميلاد إلى عادة البغي المقدس لدى هؤلاء السكان .

إن قطعة الأرض التي قامت عليسا بشرائها من ملك المنطقة المجاورة لمستوطنة أوتيكا، و تحايل هذا الملك على القوانين القبلية لانبهاره بجمال الأميرة الساحر، إنما يدل على وجود كيان سياسي قائم في ذات المنطقة .